البعد الحضاري لقضية المرأة

الدكتورة نعيمة نصيب
جامعة قالمة

تعد قضية المرأة من الإشكاليات الحديثة التي تطرح نفسها على الساحة الدولية خاصة ضمن الصراع القائم بين الثقافات والأديان، أين أصبحت المرأة المسلمة محور النقاشات العالمية، وأصبح وضعها بالنسبة للمجتمع ككل يطرح العديد من التساؤلات سنحاول الاجابة عنها من خلال النقاط التالية:

أولا: وضع المرأة المسلمة نتاج لمجتمعها.

ثانيا: المرأة المسلمة والصراع الحضاري.

ثالثا: المرأة المسلمة وآفاق تطورها.

اولا: وضع المرأة نتاج لمجتمعها

لقد ارتبط وضع المرأة عامة بما أشيع عنها في الثقافات الاجتماعية العامة، خاصة تلك التي قال بها بعض الفلاسفة أو التي حملتها مختلف الأفكار الدينية. فأفلاطون مثلا عاش طول حياته يتأسف لأن التي ولدته امرأة وأرسطو اعتبرها من ممتلكات الرجل، أما الهنود فاعتبروها الدناسة، فالنساء عندهم كالباطل تماما وليس من الحكمة مصاحبتهن، كما يراها اليهود مصدرا للشر والإفساد و انها مخلوق مثقل بالخطيئة، بالإضافة إلى ذلك فهي السبب الرئيسي في غواية آدم و جعله يأكل من ثمر الشجرة المحرمة في الجنة وبالتالي إخراجه منها ؛ وما نتج عن ذلك من آلام للبشرية، لهذا نجد من أهم دعوا تهم في صلاتهم " مبارك أنت يا رب لأنك لم تجعلني وثنيا ولا إمرأة ولا جاهلا " (1).

وانتقلت فكرة الغواية من اليهودية الى المسيحية، ومنها جاءت فكرة الخطيئة التي كانت سببها المرأة، الأمر الذي أدى إلى تشجيع الرهبنة وهجر الزواج لأن البعد عن المرأة يقرب من الإله.

أما عن العرب قبل الإسلام نلاحظ تباينا في تعاملهم مع النساء، فهناك تقدير للبعض وإقرار

لدورهن واعتراف بمكانتهن في مجتمعهن، مثل خديجة التي تملك القوافل وتمارس التجارة و معروف ما للتجارة من التزامات وتبعات مادية وأخلاقية، و مع ذلك فالمجتمع العربي لم يعترض على ممارستها لهذه المهنة،أو اعتبر ذلك أمرا شاذا، بالإضافة الى ذلك ؛ فهناك ظاهرة الانتساب إلى الأم مثل عمرو بن كلثوم، عمرو بن هند، الأمير منذر ابن ماء السماء،... وغيرهم كثير، و بالتالي فمكانة المرأة من هذا المنظورمحفوظة و دورها بارز، هذا من ناحية، و من ناحية أخرى تنتشر عندهم ظاهرة وأد البنات واعتبارهن عارا ؛ الأمر الذي يعبر عن النظرة السلبية للمرأة من طرف المجتمع العربي قبل الإسلام وهنا تبرز نقطة مهمة تتمثل في ازدواجية النظرة للمرأة في هذه المرحلة، فهي سلبية مزدرية للبعض وايجابية للبعض الاخر، وهذا مايبرزه الرسول" ص" في قوله أنه بعث للناس ليتمم مكارم الأخلاق وبالتالي فالإسلام وضع تشريعا عاما يرتقي بجميع النساء و ليس البعض منهن فقط، فأول ما فعل برأ المرأة من خطيئة الغواية في الديانة اليهودية والمسيحية، وتجدر الإشارة أن فكرة الغواية المرتبطة بالمرأة يقول بها بعض المتطرفين الإسلاميين وهي ليست من الإسلام في شيء، ثم عمل على إزالة فكرة الدونية الخاصة بالمرأة وسوى بينها وبين الرجل، من خلال بيان أن الله خلق الذكر والأنثى من نفس واحدة وأنهما خلقا مستقلين غير متماثلين بل متكاملان.

والحقيقة لقد غير الإسلام الواقع الذي تعيشه المرأة إلى أحسنه واعترف لها بالحقوق والواجبات مثلها مثل الرجل، و أوضح أن وجه التفاضل بينهما يعود الى العمل الصالح لأي منهما و ليس إلى أي شيء اخر، لكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن إلى ماذا يعزى وضع المرأة المسلمة المتردي ؟

إن القراءة النقدية البسيطة لتاريخ المجتمع الإسلامي ككل، تبين أنه ابتداء من انهيار الحضارة العباسية وظهور الفتن المختلفة والتقهقر الذي شمل جل الميادين، بدأ الضعف ينخر جذور هذه الأمة سياسيا وثقافيا واجتماعيا.

وعادت الخرافات والبدع التي تنسب ليست للمرأة فحسب بل إلى الدين في حد ذاته، وبرزت فكرة التصوف والاعتزال والتقوقع على الذات بصحيحها وخطئها، وظهرت طقوسا جديدة لم تكن موجودة سابقا وليتها كانت اجتهادا إلى الأحسن، بل كانت تحمل بوادر التراجع إلى ما قبل الإسلام، وعودة للعادات والتقاليد السيئة، ومع هذه الانتكاسة استرجعت المرأة ما لصق بها من مظاهر سلبية دونية وعادت فكرة الخطيئة والغواية، والأنثى كعار على أبيها وأنها مركز الفساد فأصبح وضع المرأة المسلمة في أسوء حال و تحضرنا هنا مقولة لأحد المتصوفين يقول فيها " إخواني فروا من النسوان تنجوا من الأحزان ".

لقد عادت الشوائب والأفكار والتقاليد السيئة إلى المرأة كما إلى المجتمع ككل، وبما أن المجتمع الإسلامي ليس من العرب فقط فان عصر الضعف قد جمع العديد من نقائص المجتمعات التي ضمتها اليهودية والمسيحية والوثنية والتي استمرت إلى عصرنا الحالي، واستمرت معه هذه المظاهر السلبية، لقد أصبح المجتمع الإسلامي ينتج التخلف ويعيد إنتاجه، بالرغم من أن الإسلام يشجع على الاجتهاد و التطور ؛ فهو يرى أن من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، وعليه فالإسلام متطور ومتفتح على المستقبل وليس متراجعا إلى الخلف (والخلف هنا ليست القيم السامية بل الخلف هو التقاليد السلبية التي تعالى عنها الإسلام ليسترجعها مسلمو عصور الضعف، لهذا لابد من القراءة النقدية الواعية والموضوعية لتاريخنا وتنقيته من الشوائب التي لصقت به لا سيما تلك الخاصة بالمرأة.

ثانيا: المرأة المسلمة والصراع الحضاري:

يعبر وضع المرأة في مختلف المجتمعات عن الصورة الحقيقية لهذه الأخيرة، وعن درجة التقدم الحضاري الذي بلغته، لأن المرأة تعد المفتاح الأخلاقي

والثقافي الذي يمكن من خلاله التحكم في سيرورة عملية التغير المستقبلي لهذه المجتمعات، ومن هذا المنطلق فإن المجتمع الغربي قد وعى لفاعلية هذا الدور واعتمد عليه في محاولته للسيطرة الحضارية بأبعادها الثقافية والاقتصادية على مختلف المجتمعات الضعيفة.

وبطبيعة الحال فإن المجتمع العربي الإسلامي كان من بين المجتمعات التي تعرضت لهذه السيطرة عبر حركة الاستعمار والاستيطان الأوربي على أراضيها، و بالنظر إلى ما واجهه هذا الأخير من صعوبات ناتجة عن الرفض العام لهذا الاستعمار لاسيما في شكله الثقافي و القيمي، وبالتالي القطيعة بينه و بين الشعوب العربية التي نتج عنها العديد من المشاكل و الصعوبات و وضعته في حالة عدم استقرار دائمة ن فإنه عمد إلى بحث الطرق الكفيلة بتحقيق هذا الهدف فتوصل إلى انه لابد من التركيز على دراسة هذه المجتمعات انطلاقا من وضع المرأة المسلمة، و في هذا المجال يرى " ملكيور جوزيف اوجين توماس: melchior gesepch-eegene -daemas) وهو جنيرال فرنسي وباحث اثر وبولوجي قام بدراسة تعرض فيها بالبحث والتحليل لوضع المرأة في المجتمع الإسلامي وركز على الجزائر،فتوصل إلى أن وضع المرأة في هذا البلد يستمد قواعده من تعاليم الدين الإسلامي الذي يضعها في إطار موضعين (2) هما:

1: ان المرأة ليست إلا متاع وكائن حسي متراخي ممل مسجون في قفص الحريم.

2: ان المرأة عبد أو خادم محكوم عليه بالعمل الإجباري وضمنا بالجنس الإجباري مع زوجها.

ويرى انه ومن خلال هذين الموضعين تمت السيطرة عليها من طرف المجتمع الذكوري الإسلامي وعزلها عن الحياة، لهذا فانه حتى تكلل المهمة الحضارية الفرنسية التي جاءت لكي تحققها في الجزائر، لابد عليها ان تواجه اكثر العوائق صلابة،وهو الاستعمال الذكوري النشط للمرأة بالتركيز على بنية الأسرة والتعبيرات الجنسية والعلاقات بين الذكر والأنثى، وذالك من اجل تحقيق استيعاب

حضاري شامل للإنسان الجزائري الذي هو في حقيقة الأمر مستسلما وتابعا سياسيا لفرنسا. لكنه ومن الجانب الحضاري، وهو الأهم مستقلا بذاته وغريبا أخلاقيا وثقافيا عن هذا الآخر الذي جاءه من وراء البحار، فرنسا

ويذهب "دوماس" إلى أنه وفي الحالات الطبيعية فإن فرنسا تستطيع أن تحقق الاستيعاب الحضاري للعرب المسلمين في الجزائر من خلال طريقتين هما:

1- الإندماج الاجتماعي والثقافي وحتى السياسي بين المسلمين والفرنسيين إلا أنه يرى أن تطبيق هذه يعد حلما مثاليا لا يمكن تحقيقه لأن هؤلاء العرب المسلمين رفضوا التعامل مع الفرنسيين وانعزلوا عنهم وكونوا لهم القوانين التي تضبط سير أمورهم وتوجيههم، وبالتالي فإنه حتى الأجيال الجديدة تنشأ منفصلة ثقافيا وأخلاقيا عن الحضارة الفرنسية.

بالإضافة إلى ذلك فإنهم في تعاملهم فيما بينهم لا يخضعون للقوانين الفرنسية، بقدر ما يخضعون للقوانين العرفية الخاصة بهم، ومن خلال ذلك كونوا مجتمعا له قوانينه ومؤسساته الخاصة التي تنطلق في أغلبها من القيم الدينية الإسلامية.

2- الطريقة الثانية تتمثل في زواج ابنة المهزوم أي المرأة الجزائرية، من ابن المنتصر الرجل الفرنسي حتى تنشأ أجيالا مندمجة ثقافيا في الحضارة الفرنسية، ويرى أنه حتى بالنسبة لهذه الطريقة فهي مستحيلة التطبيق وتصطدم بعاملين:

الأول: هو نظام الزواج في هذا المجتمع المسلم والذي يعد أساس وحدته الثقافية، وموضوعا شديد الحساسية يحمل طقوسا تتنافر مع الذوق الأوروبي، وغير قابلة للتنازل عنها من طرف هؤلاء المسلمين، وبالتالي فإنه حتى يتحقق هذا الزواج لابد لفرنسا أن تتدخل في تغيير معاييره وهو أمر لا يمكن تحقيقه.

أما العامل الثاني: هو ابنة المهزوم في حد ذاتها والتي أصبحت من أقدس مقدسات المسلمين، التي عمدوا إلى الحفاظ عليها من خلال عزلها وسجنها في بوتقة من المعايير والقيم، التي تجعل من الآخر الفرنسي العدو اللدود الذي لا يمكن

الاقتراب منه هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه بالإضافة إلى هذا السجن التابع من داخلها فإنه هناك سجنا آخرا فرض عليها، و هو البيت والحجاب،وفي هذا المجال يقول دوماس أنه بما أن العرب المسلمين لا يعرفون الحب بنفس طريقتنا نحن الأوروبيين، فإن زواج كهذا لا يمكن أن يتم نظرا لغياب إمكانية التلاقي الفكري والمكاني بين الطرفين.

ومن خلال ما تقدم وبما أن الطريقتين غير صالحتين، فكيف لفرنسا أن تحقق النجاح في استيعاب هؤلاء العرب المسلمين ؟

في هذه الحالة حسب دوماس على فرنسا و الفرنسيين، أن ينظروا من ثقب مفتاح باب المنزل العربي في الجزائر ويستطلعوا وضع المرأة المسلمة، ويحاولوا نزع الحجب التي تخفي وراءها العادات و التقاليد الإسلامية و يحاولوا تغييرها.

ومن هنا نلاحظ كيف أن هذا المفكر توجه الاتجاه الصحيح لتحقيق السيطرة الفرنسية المتمثل في المرأة تحديدا حيث أنه يرى أننا إذا استطعنا أن نغرس الثقافة الغربية أو الفرنسية لدى المرأة فإن فرنسا في هذه الحالة تكون قد نجحت، والحقيقة أن هذه هي نفس أفكارغيره من الباحثين المستشرقين الذين يرون أن المرأة كرمز للإسلام والثقافة العربية في شمال إفريقيا كانت عقبة كبيرة أمام عملية استيعاب المجتمع العربي من قبل الأوروبيين (4)

لقد أرجع أحد الأساتذة الفرنسيين وهو اميل فليكس emile-felix gaetior (5) أستاذ بجامعة الجزائر سر قوة تماسك الجزائريين وقدرتهم على مقاومة الثقافية الفرنسية وصمودهم أمامها، إلى المرأة أوما يطلق عليه "الحريم" فهو يرى أن الأسرة هي الرمز المستتر للحريم هذا الأخيرهو الرمز المشفر للجنس العربي الإسلامي)المنحرف) وفي ظل هذه المحرمات المعروفة المرتبطة بالجنس والنوع، لم يكن هناك مأوى للأجانب في منازل عرب شمال إفريقيا، ويذهب هوتيه إلى أن النقطة المحورية و الفاصلة في المجتمع العربي الإسلامي هو أنك إذا أردت أن تبحث عن العنصر الأساسي في هذا الأخير ستجده الأسرة، وأن احتلال فرنسا للجزائر لم يكن في المنزل لان ردهة هذا الأخير بقيت لأهل البلد ولو استطاعت

فرنسا أن تتحكم في هذا المقدس بالنسبة للعرب، فإنها سوف تبقى إلى الأبد في الجزائر.

وبالفعل لقد بدأت فرنسا توجه جهودها إلى الأسرة الجزائرية وبالذات إلى المرأة، لا سيما من خلال المناضلات النسويات، من خلال الدعوة إلى إعطاء المرأة الجزائرية حقوقها المدنية لا سيما حقها في التعليم النظامي في المدارس الفرنسية،و معاملتها كمواطنة فرنسية، وبالتالي بدأت المرأة الفرنسية المهضومة الحقوق في بلدها تلعب دور الوسيط الثقافي في الجزائر.

ونفس اللغة النسوية الداعية إلى إخراج المرأة المسلمة من بيتها ونزع الحجاب عنها أستعملت من طرف أعداء النسوية أمثال الحاكم العام البريطاني في مصر كرومر.

لقد استعمل المستعمرون في البلاد الإسلامية لغة الهجوم على وضع المرأة المسلمة عن طريق تحقير المبادئ التي تحملها والتأكيد على أن تقدم المرأة العربية يقوم على مقاومة الحجاب والاتجاه نحو التغريب من خلال التخلي عن العادات والتقاليد العربية الإسلامية.

إن هذه الدعوة قد وجدت لها صدى لدى الطبقات البرجوازية في المجتمعات العربية،وهذا ما تؤكده جوليت منس التي تذهب إلى أن الغالبية الساحقة من النساء اللواتي تركن الحجاب والسروال أو العباءة الطويلة القائمة لصالح الزي الغربي وتابعن دراستهن واخترن زوجهن هن من البرجوازية العصرية (6)

لقد رفض كرومر الفكر النسوي وهاجم نظال النساء في أوروبا فلماذا يناضل شخصيا لصالح المرأة المسلمة لينزع عنها ذلك التخلف الذي يدعى الحجاب، وهذا الأمر يدعو للتساؤل لماذا يهاجم مثل هذا اللباس الذي يمكن اعتباره لباسا عاديا خاصا بجماعة معينة، كما هو الأمر للباس الهندي أو الياباني، أو حتى الأوروبي، لماذا لم تهاجم المجتمعات التي يمشي أفرادها عراة بما يخدش الحياء الإنساني أو الآداب العامة.

إن الإجابة عن هذه التساؤلات توصلنا إلى نتيجة واحدة هي أن هذا اللباس ليس لباسا عاديا بل هو حضارة استطاعت بقيمها أن تقف أمام الحضارة الغربية واستطاعت أن تحافظ على كيان أمة بعاداتها وتقاليدها وأعرافها رغم ما يشوبها من مغالطات، وأصبحت مصدر قوة ورمز للإختلاف الحضاري والانتماء العام، ومن هنا تدرك فعلا وعي المشرع الفرنسي بمدى تأثير هذا اللباس ومدى قوته وبالتالي الدعوة إلى منعه في مجتمعهم، فمتى يعي الإنسان المسلم حقيقة ذاته ويأخذ بعناصر قوته.

ثانيا: المرأة المسلمة وأفاق تطورها:

لقد انقسمت التوجيهات الفكرية للمرأة العربية في القرن الحادي والعشرين إلى قسمين، قسم متحرر متطرف يدعو إلى إتباع القيم الغربية والتخلص من الماضي الذي يعتبره سبب تخلفها، ويعتبر القيم الدينية مسألة شخصية للفرد الحرية المطلقة في الإلتزام بها أو عدمه، ويرى غيره من النساء منحلقات عن الركب الحضاري، وبالتالي عدم التعامل معهن حتى يتركن ماهن فيه ويلتزمن بالقيم الغربية التي يناضل من أجلها باعتبارها رمز التقدم الحضاري.

أما القسم الثاني: فين المتطرفات دينيا ويرين أن القيم الدينية الإسلامية السمحة هي المخرج الوحيد للمرأة من الضياع الذي يعيشه المجتمع والمرأة وينميزن، بالسعادات في هذه القيم إلى درجة افقادها لروحها الإسلامية الحقيقية، والرجوع بها إلى عهد المعتزلة والمتصوفين، ويرين أن القيم الغربية هي الفساد والرذيلة وينظرن إلى غيرهن من النساء بأنهن زنديقات وخارجات عن الدين وغيرها من التشبيهات، وبالتالي فهذا القسم أيضا يرفض التعامل مع القسم الأول حتى يترك ما هو عليه، وبين هذين القسمين يوجد قسم الأغلبية الساحقة من النساء التائهات بين هذين التيارين أو المغيبات إجتماعيا اللواتي لا تأثير لهن على كثرتهن.

الواقع أن هذه القطيعة بين هذين القسمين الأول والثاني من النساء العربيات المسلمات والفصل في اتجاهين متعاكسين بالرغم من أنهما يعيشان نفس الظروف ونفس المتغيرات الاجتماعية ويتجهان إلى هدف واحد هو صالح المرأة

والمجتمع ككل. تؤدي بلا شك إلى زيادة بؤر الصراع والأحقاد. إن التزمت ورفض الاستماع إلى الآخر من كلا الطرفين هو العامل الأساسي في التخلف العام للمرأة وللمجتمع. فلكل طرف إيجابياته وسلبياته فلماذا لا يتحاور الطرفان ويستفيدان من الرؤى المختلفة لكل طرف ويتجاوزا نقاط الاختلاف لصالح المرأة والمجتمع بصفة عامة.

وعليه فإن الواقع يثبت أن جهود وعمل كلا الطرفين كان عشوائيا غير ممنهجا، له أهداف جزئية وآنية غير فاعلة ولا تحمل أبعادا مستقبلية استراتيجية. إذن فما العمل ؟

الحقيقة أن أول شيء لابد من الانتباه إليه هو الاتجاه الواعي للموروثات الثقافية الماضية وقراءتها قراءة نقدية واعية بفرز الإيجابي من المعايير والقيم عن السلبي والالتزام به وتطويره واستثماره في الحياة العامة (7)

ولا يقتصر هذا فيما يخص المرأة فقط بل لا بد أن يشمل المجتمع عامة،لأن تطور المرأة لا يخرج عن تطور المجتمع الكلي. أما العنصر الثاني هو أن المرأة لابد عليها أن تكتشف قدراتها وإمكانياتها العامة وتثق بها. وبالتالي الحضور العام ثم عليها أن ترتقي بنفسها عن فكرة الصراع مع الرجل لأنها فكرة عقيمة وغير بناءة وهادرة للجهد والوقت ومفككة للعلاقات الأسرية المقدسة،وعليها أن تحمل هموم المجتمع تماما كما يحملها الرجل ولا تنظر إلى مشكلة المرأة وتتوقف عندها وبالتالي تحمل قضايا عامة.

إن فكرة رفض الآخر (الغرب) جملة وتفصيلا يعد تطرفا و بالتالي فعلى المرأة أن تتفاعل مع كل الثقافات

وتنتقي الأفضل والأصلح لها ولمجتمعها.

إن فكرة التطرف الديني والتطرف التغريبي والتزمت لكل اتجاه لا يوصل إلى أية نتيجة بل يدعم الحقد والكراهية والصراع الدائم، وبالتالي لا بد من التفاعل والمرونة مع بعضنا البعض والسعي دائما إلى الصالح العام.

الهوامش:

1- أسعد السحراني، سوزة عباس، نحو إطار حضاري للمجتمع العربي في القرن الحادي والعشرين،دار القراءة للجميع للنشر والتوزيع، الإمارات، ط 1 سنة 1998، ص 294.

2- أميرة الأزهري سنبل، النساء وقوانين الطلاق في التاريخ الإسلامي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999، ص 65.

3- نفس المرجع، ص 64.

4- نفس المرجع، ص 69.

5- نفس المرجع، ص 75.

6- ليلى احمد، المرأة و الجنوسة في الإسلام: الجذور التاريخية لقضية جدلية حديثة، ترجمة منى إبراهيم، هالة كمال، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، 1999، ص 260.

7- جولييت منس، المرأة في العالم العربي، ترجمة إلياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، ط 1، سنة 1982،ص46.